مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويا

العدد الثالث
1986

- صدى الأدب العربي في الدعوة الإسلامية
- مخطوطات ليبية
- وصول الإسلام إلى ساحل مليبار
- التيارات الفلسفية وعلاقتها بالصراع على الحكم

عرض كتاب

الكتاب في الحضارة الاسلامية

تأليف : عبد الله الحبشي

كويت : شركة الربيعان للنشر والتوزيع ، 1982 ، 201 ص.

عرض وتقديم

مفتاح محمد دياب

قسم المكتبات والمعلومات ،

كلية التربية ، جامعة الفاتح ، طرابلس .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقارنة بالدراسات والكتب التي صدرت تؤرخ بداية ظهور الكتاب وتاريخه في اللغات الاجنبية ، فاننا نجد أن هناك نقصاً كبيراً في جانب من جوانب تاريخ الحركة العلمية والثقافية في اللغة العربية والذي يعتبر الكتاب أهم وسائطها خاصة منذ أن عرف العرب الكتاب وقبل اختراع الوسائط الأخرى التي اخذت تنافس الكتاب كوسائط ثقافية ووسائل لنقل المعرفة والمعلومات من القرن العشرين مثل الاذاعة المرئية والمسموعة والأدوات الالكترونية الأخرى .

وقد جاء كتاب عبد الله الحبشي ليسد جانباً من هذا النقص في حركة تأريخ الكتاب العربي والكتاب الإسلامي ويلقي بعض الضوء على حركة التأليف والنشر من الحضارة الإسلامية التي كان احد مآثرها الخالدة الاهتمام بالكتب وحركة التأليف حتى حفظت لنا كنوزاً لا تزال مثار دهشة الشرق والغرب على السواء وكان لها أيضاً الفضل الأكبر في

حفظ تراث الحضارات السابقة لها .

* * *

يضم الكتاب تقديماً بقلم أحمد عبد الرزاق الرقيحي ومقدمة موجزة للمؤلف وعشرة فصول أو موضوعات هي على التوالي : صناعة الكتابة ، النساخة ، فن النساخة ، جمع الكتب والاحتفال بها ، إعارة الكتب ، حرق الكتب ، شغفهم (أي المسلمون) لمطالعة الكتب ، شغفهم بالتأليف ومنهجهم في البحث ، سرقة الكتب ، وشغفهم بتأليف الكتب .

تحدث الكاتب في الفصل الأول « صناعة الكتاب » بإيجاز عن تطور فن الكتابة في الحضارة الإسلامية وكيف أصبحت صناعة الكتاب « علماً رائجاً له رجاله وخبراؤه » ، وكيف كان العلماء العرب والمسلمون « يغذون المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات العلمية . » . وتعرّض فيه أيضاً إلى ذكر النساخ والوراقين الذين كان لهم دور كبير في عملية نسخ الكتب والمحافظة عليها « وهم جمهور واسع ضم كل من له قدرة على الكتابة وما يتصل بها من وراقة وتجليد وفن مكتبي إلى غير ذلك » . وذكر فيه أيضاً أن النساخة أصبحت من أهم الآثار في الحضارة الإسلامية . إلاّ أن الحديث عن صناعة الكتاب وأهميتها والاشتغال بها في تلك الفترة من الزمن كان يمكن أن يأخذ صفحات كثيرة وربما مجلدات بدلاً من صفحتين في هذا الكتاب . وفي الفصل الثاني من الكتاب وهو « النساخة » عرض المؤلف النساخة كصناعة إسلامية عريقة لها أدواتها ومستلزماتها . وذكر من هذه الأدوات « المحيرة » التي اعتبرها المؤلفون القدامى « أم آلات الكتابة وسمطها الجامع » ، وكانت تصنع من « أجود العيدان كالابنوس والساسم والصندل ثم غلب على المتأخرين استعمالها [صناعتها] من النحاس الأصفر والفولاذ وتغالوا من أثمانها . » ثم ذكر بعض الأقوال لعدد من كبار الأئمة والفقهاء والمؤلفين في المحبرة وأهميتها بالنسبة للطالب والعالم والناسخ ، وأورد جملة من الأبيات الشعرية وضعها أصحابها في مدح المحبرة وتبيان قيمتها ، مثل ما قاله أبو القاسم

العلوي في وصف محبرة :

ماء كقطع الليل في لونه
تنزحه أقلامنا من قليب
قطر الندى ينبت زهر الندى
وهذه تنبت زهر القلوب
خواطر القلب إذا ما صغت
تخبر عما في حجاب الغيوب
نحوكه وشيا بأقلامنا
فبعضنا مخط وبعض مصيب

وكذلك ما قاله علي بن الصباح :

دواة حديد زيّن الله خلقها
بكفٍّ فتى حلو الكتابة حاذق
تدير العطايا والمنايا حرابها
إذا طعنت في شاكلات المهارق

وتطرق المؤلف إلى ذكر بعض الشروط التي وضعها الكتّاب للمحبرة أو الدواة كأن « تكون متوسطة في قدرها نصفا في قدها فتقصر ، لا باللطيفة جداً فتقصر أقلامها ولا بالكبيرة فيثقل حملها ، . . . . الخ » ، وجاء في هذا الفصل أيضاً أنواع الحبر والمداد التي كان يكتب بها الكتاب وينسخ بها النساخ ، وتفضيلهم لنوع عن آخر مثل الكتابة بالحبر على الكتابة بالمداد الأسود . وذكر المؤلف بعض الحوادث الطريفة التي حدثت في مجالس العلماء والنساخ نتيجة لدلق المحابر على الثياب ، والوصفات التي يمكن أن تنظف عن طريقها الثياب من الحبر . وأورد عنوان أحد الكتب القديمة التي تتناول صناعة الكتاب وأدواته وهو كتاب **المخترع من فنون الصنع** ، للملك الرسول يوسف بن عمر صاحب اليمن المتوفى عام 694 ، وهذا الكتاب ـ المخترع في فنون الصنع ـ وغيره جعل المؤلف يحس بمدى « التطور الذي وصلته صناعة الكتاب في الحضارة الإسلامية وهذا في سائر البلدان الإسلامية . » وتحدث عن الأداة الثانية وهي القلم الذي هو

« أحد آلات الناسخ ينبغي أن يكون صلباً لمنع سرعة الحرى ، ولا يكون رخواً فيسرع إليه الجفا ويجب أن يتخذ أملس العود مزال العقود وتوسع فتحته وتطال جلفته وتحز قطته ، ويحمد فيه القصب الفارس وخشب الأبنوس الناعم . . . . الخ . » وأورد عدداً من الأوصاف التي وصف بها القلم كقول ابن المقفع « القلم بريد القلب » ، وقول أبي دلف « القلم صائغ الكلام » ، وغيره من الأوصاف الأخرى للكتاب أو النساخ أو التجار الذين كانوا يتعاطون تجارة بيع الأقلام . وقد أشار المؤلف إلى بعض الكتب التراثية التي تحفل بأوصاف القلم لعل القارىء يعود إليها إذا أراد معرفة ذلك ، مثل كتاب **صبح الأعشى** ، وكتاب **أدب الإملاء** ، وكتاب **أدب الكتاب** .

أما في فصل « فن النساخة » فقد تحدث المؤلف عن فن النسخ في الحضارة الإسلامية وكيف أن هذا الفن أصبح مهنة تعاطتها عدة أجيال متعاقبة ، وتناول الآداب والشروط التي ذكرها أو وضعها العلماء للنساخ من بعدهم مثل ما ذكره ابن جماعة من أن الناسخ إذا نسخ شيئاً عن كتب العلوم الشرعية فينبغي أن يكون على طهارة مستقبل القبلة طاهر البدن والثياب بحبر طاهر ويبتدىء كل كتاب بسم الله الرحمن الرحيم ، فإذا كان الكتاب مبدوء فيه بخطبة تتضمن الحمد لله تعالى والصلاة على رسوله كتبها بعد البسملة وإلا كتب هو ذلك ، وذكر أيضاً المجالات التي كان يستخدم فيها العلماء الرموز التي يفهم منها الدقة والصحة وكذلك علامات الترقيم والايضاح . وعرض المؤلف في هذا الفصل لقدرة النساخ لاتقان فن الكتابة وطريقتهم في نسخ الكتب ، وذكر أن من النساخ من تخصص فقط في نسخ عناوين الكتب ، مثل الناسخ إبراهيم بن أحمد الزرعي . وعرض المؤلف أنواع الخط المستعمل في الكتابة في ذلك الزمن ، ودقة وأهمية كل نوع ، وإجادة الخط إجادة تامة من قبل النساخ ، وضرب مثلاً لاتقان الكتابة بالخط الدقيق الخطاط اسماعيل المعروف « بالزمكحل » المتوفى عام 788 ، الذي كان « يكتب سورة الاخلاص على ارزه وكتب من المصاحف شيئاً كثيراً وخطه في غاية الحسن . » . وبين الأقوال التي

قيلت في مدح وذم عدد من أنواع الخط ، وكذلك ضرب أمثلة لعدد من النساخ الذين لهم سرعة فائقة في نسخ الكتب ، مثل الناسخ محمد بن إبراهيم الطاهري الذي « كان يكتب في اليوم الواحد خمس كراريس فأكثر » ، وذكر أمثلة للأقوال التي وردت بصدد امتلاك عدد من النساخ لثروات كبيرة نتيجة امتهانهم حرفة النساخة وما كان يعود عليهم منها من الأموال . كذلك أورد المؤلف عدداً من الأقوال التي كانت تذم حرفة النساخة لما تجره على أصحابها من بؤس وألم وشؤم ، كقول أحد النساخ واسمه أبو حاتم يصف حاله وحال زملائه :

إن الوراقة حرفة مذمومة
مخرومة يمشي بها زمن

إن عشت عشت وليس لي اكل
أو مت مت وليس لي كفن

كذلك أورد المؤلف نقلاً عن أمهات كتب التراث العديد من الأحاديث والروايات التي جاءت في النساخ تصف أحوالهم وحيلهم في اختصار الكتب إذا ملوا نسخها ، وما ذكره العلماء والشيوخ في النساخين الذين يختصرون الكتب دون ذكر ذلك مما يضر بالانتاج الفكري العلمي ، وكيف كان بعض العلماء يضن « بكتبه خشية من تلاعب النساخ بها . » وجاء أيضاً بعدد من الروايات تقليد بعض النساخ لأئمة وكبار الخطاطين ، وتفضيل العلماء والأدباء نساخة أحد النساخين عن غيرها ، مثلما يفعل الآن الكتاب والمؤلفون في المفاضلة بين ناشر وناشر أو بين مطبعة وأخرى . وكذلك جاء ذكر بعض العلماء الذين كانوا ينسخون كتبهم بأنفسهم كما كان يفعل ابن الجوزى .

ومن فصل « جمع الكتب والاحتفال بها » بيَّن المؤلف اهتمام المسلمين بالكتاب ومكانته عندهم واهتمامهم الكبير بجمع الكتب وتقديرهم لصناعة الكتاب وللمؤلفين والنساخ الذين كان لهم الفضل في عملية نشر الكتب في العالم الإسلامي وانتشار المكتبات التي أنشئت من أجل حفظ ما كان ينسخ ويقتنى من قبل الملوك والأمراء والعلماء وباقي المسلمين ، وذكر عدداً من المكتبات الإسلامية القديمة التي ذاع

صيتها في العالم الإسلامي وأوربا مثل مكتبة « بيت الحكمة » ، في بغداد ، ومكتبة « دار العلم » في القاهرة ومكتبة « القيروان » وغيرها. وأعطى المؤلف أمثلة عن اهتمام المسلمين بجمع الكتب وكيف كان الحكام يبعثون الرجال لجمع الكتب من المناطق البعيدة جداً مثلما فعل الحكم المستنصر في الأندلس الذي كان « يبعث رجالاً إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها . » وعدّد ما كان يملكه أصحاب المكتبات الخاصة من المسلمين القدامى وما كانت تحويه تلك المكتبات من الكتب والمخطوطات مثل مكتبة الملك المؤيد في اليمن ـ توفى عام 721 ـ التي كانت تحتوي على « نحو مائة ألف مجلدة ويحمل إليها الكتب النفيسة من كل صوب حتى إنه بذل في نسخة جيدة من كتاب الأغاني بخط ياقوت المستعصمي نحو مائتي دينار . » وكذلك جاء ذكر ما كان يلقاه العلماء من رعاية وعناية وتشجيع كبير من طرف الأمراء وحكام المسلمين ، حيث كان الحكام يمنحون الهبات والأموال للعلماء والأدباء على مؤلفاتهم القيمة مثل ما فعله الملك الأشرف المتوفى عام 803 هـ حينما كافأ العلامة الفيروز ابادي المتوفى عام 817هـ بعد انتهائه من إعداد كتابه المسمى **الاصعاد إلى رتبة الاجتهاد** ، حيث منحه ثلاثة آلاف دينار مكافأة له على عمله هذا . وهذا التشجيع المادي وغيره من التشجيع المعنوي الآخر كان له الأثر الكبير في النهضة العلمية التي وصلت إليها الحضارة الإسلامية في ذلك الزمن . ثم ذكر المؤلف عدداً من الكتب الموضوعة حديثاً والتي تغطي وتفي بكثير من أخبار الكتب والمكتبات الإسلامية القديمة .

وفي الفصل الذي أفرده المؤلف للحديث عن « إعارة الكتب » أورد القصص والأساليب التي كانت متبعة من قبل بعض المسلمين في إعارة الكتب خاصة أولئك الذين كانوا يحبون الكتب حباً كبيراً ولم تكن لديهم القدرة على شرائها حيث استعانوا في هذا الأمر بالمكتبات التي كانت تقوم بإعارة الكتب للقراء مثل المكتبات التي أوقفها بعض الأفراد على الاستخدام العام أو المكتبات التي كانت تصرف عليها الدولة والمكتبات الملحقة بقصور بعض الأمراء . وكذلك ما أورده من أن

بعض العلماء جعل من إعارة الكتب وسيلة لعدم شرائها مثلما كان يفعل العلامة النحوي المفسر أبو حيان المتوفى عام 745 هـ حيث كان يقول « أنا إذا أردت أي كتاب استعرته من خزائن الأوقاف وإذا أردت من أحد أن يعيرني درهماً ما أجد ذلك . » وإعارة الكتب تعتبر الآن من الخدمات المهمة التي تقوم بها المكتبات ، وقسم الإعارة يعتبر أحد الأقسام الأساسية لأي نوع من أنواع المكتبات الحديثة ، وقد عرف المسلمون خدمة الاعارة وجعلوا لها قوانين تنظمها منذ عدة قرون ، وبذلك قدموا للخدمة المكتبية نموذجاً مثالياً في مكتباتهم كان يمكّن الناس من إعارة الكتب والاستفادة منها ، وكان كثير من العلماء يعيرون كتبهم الخاصة للناس ، وجاءت أحاديثهم وأقوالهم معبرة عن حبهم لإعارة ما يملكونه من كتب للناس حتى تعم الفائدة على الجميع ، مثل قول خميس بن علي الجوزى :

كتبي لأهل العلم مبذولة
أيديهم مثل يدي فيها
متى أرادوها بلا منة
عارية فليستعيروها
حاشاي أن اكتمها عنهم
بخلاً كما غيري يخفيها
أعارنا أشياخنا كتبهم
وسنّة الأشياخ نمضيها

وكذلك وردت جملة من الأحاديث عن آداب إعارة الكتب وما يجب أن يقوم به المستعير من المحافظة على الكتب وردها في الوقت المناسب . . . . الخ . ومن ناحية أخرى أورد المؤلف كثيراً من الروايات عن بعض الذين كانوا يمنعون إعارة كتبهم بسبب عدم رد المستعيرين لهذه الكتب مما جعلهم يحجبون الكتب عن الناس ، ومن الأقوال التي جاء بها المؤلف كمثل على ذلك قول حمزة بن حبيب الزيات : « لا تأمنن قارئاً على دفتر ولا حمالاً على حبل . » ونتيجة أيضاً لبعض المشكلات التي كانت تعترض بعض المكتبات بسبب

إعـارة الكتب كان بعضها لا يعير الكتب خارج المكتبة ، مثـل مكتبة الحكمة بنيساربور وكذلك كانت تفعل المكتبة المحمودية .

وفي فصل « حرق الكتب » أورد المؤلف عدداً من الشواهد التي كانت تُحكي عن حوادث حرق الكتب نتيجة لحرق المباني والمساكن . وذكر عدداً من العلماء الـذين أحرقت كتبهم وكيف أصـابتهم الحسرة والألم من جـراء فقدهم لكتبهم ، ومن الأمثلة التي أوردهـا المؤلف ، العلامة محمد بن علي المـادراني المتوفى عـام 345 ، والعلامـة عمر بن الحسين الخرقي المتوفى عام 334 ، والعلامة أبـو حفص عمر بن عـلي الملقن المتوفى عام 804 والذي سبب له حرق كتبه ذهولاً عقلياً وخللاً في المخ . . . . الخ . كذلك أورد الكاتب ما تعرض له كثير من العلماء من مصـادرة لكتبهم وحرقهـا مثل الإمـام ابن حـزم ، والفقيـه عبـد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيـلاني الذي أتهم بـالفلسفة والسحر فأحرقت كتبه . وهناك أيضاً بعض الحكـايات التي قـام فيها بعض العلماء أو الأدباء أو غيرهم بإحراق كتبهم أو إتلافها بأنفسهم ، مثلما فعل الصوفي أحمد بن أبي الحواري الذي أغرق كتبـه في البحر ، وغـير ذلـك من الـروايـات والقصص عن المؤيـدين لإتـلاف الكتب والمعارضين لـذلك . ومن المعروف ـ كما ذكـر الكتاب ـ أن أشهـر من حرق كتبه من الأدباء هو الأديب أبو حيان التوحيدي .

أما في موضوع « شغفهم بمطالعة الكتب » فقد ذكر المؤلف أن شغف المسلمين بمطالعـة الكتب وقراءتهـا كان نمـوذجاً آخـر من نماذج تقديرهم للكتب والحـرص عليها ، وكـذلك حـرص العلماء المسلمين الشديد على مطالعـة الكتب وعدم تـركها حتى أثنـاء المرض ، وجـاء بأمثلة لعدد من العلماء الذين اشتهروا بحبهم للمطالعة والقراءة ، مثل الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، والخطيب البغدادي ـ الذي يروى عنه أنه كان يمشي وفي يده كتاب يطالعه ـ ، والحسن اللؤلؤي ، وعلي بن الجهم وغيرهم .

وفي مـوضـوع « شغفهم بـالتـأليف ومنهجهم في البحث » بـيّن

المؤلف الاهتمام الذي كان يوليه المسلمون في تأليف كتبهم وكيف فيها حتى الرمق الأخير من الحياة ، وكيف شغلت مسائل العلوم والتفكير فيها العلماء عن الشعور بمن حولهم . ثم تحدث عن منهج علماء المسلمين في البحث والطرق التي كان العلماء يتبعونها في التأليف ، وأشار إلى ما كتبه أحد المستشرقين في موضوع منهاج البحث عند المسلمين وهو كتاب **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي** ، وذكر المؤلف أن موضوع البحث ومناهجه عند المسلمين لا زال لم يستوف حقه بالبحث في الوقت الحاضر . وعلق على كتاب المستشرق المذكور بقوله بأنه لم يوف الموضوع حقه ولم يستشفّ هذا المستشرق طبيعة البحث الإسلامي كمنهج خاص بالإسلام .

وأفرد المؤلف فصلاً عن « سرقة الكتب » ، وكيف كان كثير من العلماء يشكون من سرقة مؤلفاتهم ونسبتها إلى غيرهم ويقصد هنا موضوع انتحال المؤلفات ونسبتها إلى غير مؤلفيها كما يحدث الآن من تزوير للكتب من طرف بعض الناشرين . وأورد عدداً من الحكايات التي توضح عملية السرقة ونسبة الكتب إلى غير أصحابها الحقيقيين ، وضرب أمثلة للعديد من الكتب المنتحلة وأسماء من انتحلها ونسبها لنفسه .

أما الفصل الأخير من هذا الكتاب فقد كان موضعه « شغفهم بتأليف الكتب » وتحدث فيه عن طرق المسلمين في تأليف الكتب وحالهم في الكتابة . وجاء بما قاله العلماء عن الأوقات التي يستحب فيها التأليف والكتابة عن غيرها من الأوقات مثل قول ابن جماعة « أجود الأوقات للحفظ الأسحار وللبحث الأبكار وللكتابة وسط النهار وللمطالعة والمذاكرة الليل » ، وكيف كان العلماء المسلمون يقسّمون وقتهم مثل الامام الشافعي الذي كان « يجزيء الليل ثلاثة أجزاء ، الثلث الأول للكتب والثاني يصلي والثالث ينام » ، وأورد بعض القصص والروايات عن بعض عادات العلماء في الكتابة والتأليف وما له علاقة بذلك .

خاتمة :

وكما ذكرت في بداية حديثي عن هذا الكتاب ، من أنه يسد نقصاً كبيراً وفراغاً يعاني منه تاريخ الكتاب العربي والإسلامي إلاّ أنه كان بإمكان المؤلف أن يوسّع في هذا الكتاب ويضمنه كثيراً من المعلومات عن حركة نشر الكتب وطرق النشر وأساليبه من العصور الإسلامية المختلفة ، ويعقد مقارنة بين المسلمين القدامى والمحدثين من ناحية الاهتمام بالكتاب والكتابة وتقدير العلم والثقافة الأمر الذي رفع المسلمين في ذلك الوقت إلى قمة المجد العلمي والحضاري ، وما يعانيه المسلمون الآن من تخلف على كل المستويات وخاصة المستوى العلمي . كذلك يمكن أن يعقد مقارنة بين الأعداد الكبيرة من الكتب التي نسخها المسلمون القدامى والتي وصلت إلى الملايين ، والنقص الموجود حالياً في صناعة الكتاب العربي والإسلامي على الرغم من وجود المطابع الحديثة في هذا الوقت . وهذا ما نرجو أن يضيفه المؤلف الاستاذ عبد الله الحبشي في المرة القادمة سواء في طبعة جديدة مزيدة لهذا الكتاب أو في مؤلف آخر . ونرجو أن يكون هذا الكتاب حافزاً وخطوة أولى لكثير من المؤرخين والمهتمين بالكتاب العربي والإسلامي لتقديم المزيد من الأعمال التي تتناول بالدراسة والبحث تطور الكتاب العربي والإسلامي عبر العصور ، مما يثري المكتبة العربية والإسلامية ويسد الفراغ الذي تعانيه في هذا الجانب مقارنة لها بالمكتبات العالمية الأخرى . وهذا العمل يعتبر مرجعاً مهما للمتخصصين في تاريخ الكتب والمكتبات وكذلك تاريخ الحركة الثقافية في الوطن العربي والعالم الإسلامي ، ونسأل الله التوفيق .

مفتاح محمد دياب